والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) وذكرنا حديث نوح وأمته بما أغنى عن إعادته ، وقوله (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) أى قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها فأدوا حق الله عليكم فى أداء ما افترض وطاعة ما أوجب وترك ماحرم ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهو الإحسان إلى خلق الله بما أوجب للفقير على الغنى من إخراج جزء نزر من ماله فى السنة للضعفاء والمحاويج كما تقدم بيانه وتفصيله فى آية الزكاة من سورة التوبة وقوله (واعتصموا بالله) أى اعتضدوا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه وتأيدوا به (هو مولاكم) أى حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم (فنعم المولى ونعم النصير) يعنى نعم الولى ونعم الناصر من الأعداء، قال وهيب بن الورد يقول الله تعالى : ابن آدم اذكرنى إذا غضبت أذكرك إذا غضبت فلا أمحقك فيمن أمحق ، وإذا ظلمت فاصبر وارض بنصرتى فان نصرتى لك خير من نصرتك لنفسك . رواه ابن أبى حاتم والله أعلم. آخر تفسير سورة الحج ولله الحمد والمنة

﴿ تفسير سورة المؤمنون مكية ﴾

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَوٰتِهِمْ خَٰشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْوَٰرِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أخبرنى يونس بن سليم قال أملى على يونس بن يزيد الأيلى عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن عبد القارى قال سمعت عمر بن الخطاب يقول كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال « اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارض عنا وأرضنا — ثم قال — لقد أنزل على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة » ثم قرأ (قد أفلح المؤمنون) حتى ختم العشر ، ورواه الترمذى فى تفسيره والنسائى فى الصلاة من حديث عبد الرزاق به ، وقال الترمذى منكر لانعرف أحدا رواه غير يونس بن سليم ويونس لانعرفه ، وقال النسائى فى تفسيره أنبأنا قتيبة بن سعيد حدثنا جعفر عن أبى عمران عن يزيد بن بابنوس قال قلنا لعائشة أم المؤمنين كيف كان خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن فقرأت (قد أفلح المؤمنون — حتى انتهت إلى — والذين هم على صلواتهم يحافظون) قالت هكذا كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهد وأبى العالية وغيرهم لما خلق الله جنة عدن وغرسها بيده نظر اليها وقال لها تكلمى فقالت (قد أفلح المؤمنون) قال كعب الأحبار لما أعدلهم من الكرامة فيها وقال أبو العالية فأنزل الله ذلك فى كتابه ، وقد روى ذلك عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا فقال أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى حدثنا المغيرة بن مسلمة حدثنا وهيب عن الجريرى عن أبى نضرة عن أبى سعيد قال خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وغرسها وقال لها تكلمى فقالت (قد أفلح المؤمنون) فدخلتها الملائكة فقالت طوبى لك منزل الملوك ، ثم قال وحدثنا بشر بن آدم وحدثنا يونس بن عبيد الله العمرى حدثنا عدى بن الفضل حدثنا الجريرى عن أبى نضرة عن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال « خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وملاطها المسك — قال البزار ورأيت فى موضع آخر فى هذا الحديث —

حائط الجنة لبنة ذهب ولبنة فضه وملاطها المسك . فقال لها تكلمى فقالت (قد أفلح المؤمنون) فقالت الملائكة طوبى لك منزل الملوك » ثم قال البزار لانعلم أحداً رفعه إلا عدى بن الفضل وليس هو بالحافظ وهو شيخ متقدم الموت ، وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا أحمد بن على حدثنا هشام بن خالد حدثنا بقية عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله جنة عدن خلق فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم قال لها تكلمى فقالت (قد أفلح المؤمنون) » بقية عن الحجازيين ضعيف ، وقال الطبرانى حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة حدثنا منجاب بن الحارث حدثنا حماد بن عيسى العبسى عن إسماعيل السدى عن أبى صالح عن ابن عباس يرفعه « لما خلق الله جنة عدن بيده ودلى فيها ثمارها وشق فيها أنهارها ثم نظر اليها فقال (قد أفلح المؤمنون) قال وعزتى وجلالى لايجاورنى فيك بخيل » وقال أبو بكر بن أبى الدنيا حدثنا محمد بن المثنى البزار حدثنا محمد بن زياد الكلبى حدثنا يعيش بن حسين عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء ولبنة من ياقوتة حمراء ولبنة من زبرجدة خضراء ملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ وحشيشها الزعفران ثم قال لها انطقى قالت (قد أفلح المؤمنون) فقال الله وعزتى وجلالى لايجاورنى فيك بخيل » ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) وقوله تعالى (قد أفلح المؤمنون) أى قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (خاشعون) خائفون ساكنون وكذا روى عن مجاهد والحسن وقتادة والزهرى ، وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه الخشوع خشوع القلب وكذا قال إبراهيم النخعى ، وقال الحسن البصرى كان خشوعهم فى قلوبهم فغضوا بذلك أبصارهم وخفضوا الجناح ، وقال محمد بن سيرين كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة فلما نزلت هذه الآية (قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون) خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم ، قال محمد بن سيرين وكانوا يقولون لايجاوز بصره مصلاه فإن كان قد اعتاد النظر فليغمض ، رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، ثم روى ابن جرير عنه وعن عطاء بن أبى رباح أيضا مرسلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك حتى نزلت هذه الآية ، والخشوع فى الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها وحينئذ تكون راحة له وقرة عين كما قال النبى ﷺ فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والنسائى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « حبب إلىّ الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة » وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا مسعر عن عمرو بن مرة عن سالم بن أبى الجعد عن رجل من أسلم أن رسول الله ﷺ قال يابلال « أرحنا بالصلاة » وقال الإمام أحمد أيضاً ثنا عبد الرحمن بن مهدى ثنا إسرائيل عن عثمان بن المغيرة عن سالم بن أبى الجعد أن محمد بن الحنفية قال دخلت مع أبى على صهر لنا من الأنصار فحضرت الصلاة فقال ياجارية ائتنى بوضوء لعلى أصلى فأستريح ، فرآنا أنكرنا عليه ذلك فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « قم يابلال فأرحنا بالصلاة » ، وقوله (والذين هم عن اللغو معرضون) أى عن الباطل وهو يشمل الشرك كما قاله بعضهم والمعاصى كما قاله آخرون ومالا فائدة فيه من الأقوال والأفعال كما قال تعالى (وإذا مروا باللغو مروا كراما) قال قتادة : أتاهم والله من أمر الله ماوقفهم عن ذلك . وقوله (والذين هم للزكاة فاعلون) الأكثرون على أن المراد بالزكاة ههنا زكاة الأموال مع أن هذه الآية مكية وإنما فرضت الزكاة بالمدينة فى سنة اثنتين من الهجرة ، والظاهر أن التى

فرضت بالمدينة إنما هى ذات النصب والمقادير الخاصة وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة قال تعالى فى سورة الأنعام وهى مكية (وآتوا حقه يوم حصاده) وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ههنا زكاة النفس من الشرك والدنس كقوله (قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها) وكقوله (وويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة) على أحد القولين فى تفسيرها وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال فانه من جملة زكاة النفوس والمؤمن الكامل هو الذى يفعل هذا وهذا والله أعلم . وقوله (والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أوماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) أى والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلايقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط ، لايقربون سوى أزواجهم التى أحلها الله لهم أوماملكت أيمانهم من السرارى ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولاحرج ولهذا قال (فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك) أى غير الأزواج والإماء (فأولئك هم العادون) أى المعتدون . وقال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الأعلى حدثنا سعيد عن قتادة أن امرأة اتخذت مملوكها وقالت تأولت آية من كتاب الله (أوماملكت أيمانهم) فأتى بها عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال له ناس من أصحاب النبى ﷺ : تأولت آية من كتاب الله عزوجل على غير وجهها قال فضرب العبد وجز رأسه وقال أنت بعده حرام على كل مسلم . هذا أثر غريب منقطع ذكره ابن جرير فى تفسير أول سورة المائدة وهو ههنا أليق ، وإنما حرمها على الرجال معاملة لها بنقيض قصدها والله أعلم . وقد استدل الإمام الشافعى رحمه الله ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة (والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم) قال فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين وقد قال الله تعالى (فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) وقد استأنسوا بحديث رواه الإمام الحسن بن عرفة فى جزئه المشهور حيث قال : حدثنى على بن ثابت الجزرى عن مسلمة بن جعفر عن حسان بن حميد عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال « سبعة لاينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا يجمعهم مع العاملين ويدخلهم النار أول الداخلين إلا أن يتوبوا ومن تاب تاب الله عليه : الناكح يده ، والفاعل والمفعول به ، ومدمن الخمر ، والضارب والديه حتى يستغيثا ، والمؤذى جيرانه حتى يلعنوه ، والناكح حليلة جاره » هذا حديث غريب وإسناده فيه من لا يعرف لجهالته والله أعلم . وقوله (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) أى إذا اؤتمنوا لم يخونوا بل يؤدونها إلى أهلها . وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » وقوله (والذين هم على صلواتهم يحافظون) أى يواظبون عليها فى مواقيتها كما قال ابن مسعود سألت رسول الله ﷺ فقلت يارسول الله أى العمل أحب إلى الله ؟ قال « الصلاة على وقتها » قلت ثم أى ؟ قال « بر الوالدين » قلت ثم أى ؟ قال « الجهاد فى سبيل الله » أخرجاه فى الصحيحين . وفى مستدرك الحاكم قال « الصلاة فى أول وقتها » وقال ابن مسعود ومسروق فى قوله (والذين هم على صلواتهم يحافظون) يعنى مواقيت الصلاة ، وكذا قال أبو الضحى وعلقمة بن قيس وسعيد بن جبير وعكرمة ، وقال قتادة على مواقيتها وركوعها وسجودها وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة واختتمها بالصلاة فدل على أفضليتها كما قال رسول الله ﷺ « استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال (أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) وثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فانه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة . وفوقه عرش الرحمن » ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « مامنكم من أحد إلا وله منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار ، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله (أولئك هم الوارثون) » وقال ابن جريج عن الليث عن مجاهد (أولئك هم الوارثون) قال مامن عبد إلا وله منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار ،

فأما المؤمن فيبنى بيته الذى فى الجنة ويهدم بيته الذى فى النار ، وأما الكافر فيهدم بيته الذى فى الجنة ويبنى بيته الذى فى النار . وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى وحده لاشريك له ، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل بل أبلغ من هذا أيضاً وهو ماثبت فى صحيح مسلم عن أبى بردة عن أبى موسى عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم ﷺ قال : « يجىء ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى » وفى لفظ له قال رسول الله ﷺ « إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقال هذا فكاكك من النار» فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبابردة بالله الذى لا إله إلاهو ثلاث مرات أن أباه حدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك قال فحلف له ، قلت وهذه الآية كقوله تعالى (تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا) وكقوله (وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون) وقد قال مجاهد وسعيد بن جبير الجنة بالرومية هى الفردوس ، وقال بعض السلف لا يسمى البستان الفردوس إلا إذا كان فيه عنب فالله أعلم

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمإ مسنون وقال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن أبى يحيى عن ابن عباس (من سلالة من طين) قال من صفوة الماء وقال مجاهد: من سلالة أى من منى بنى آدم ، وقال ابن جرير إنما سمى آدم طيناً لأنه مخلوق منه . وقال قتادة استل آدم من الطين وهذا أظهر فى المعنى وأقرب إلى السياق فان آدم عليه السلام خلق من طين لازب وهو الصلصال من الحمإ المسنون وذلك مخلوق من التراب كما قال تعالى (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عوف حدثنا أسامة بن زهير عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك » وقد رواه أبو داود والترمذى من طرق عن عوف الأعرابى به نحوه وقال الترمذى حسن صحيح (ثم جعلناه نطفة) هذا الضمير عائد على جنس الإنسان كما قال فى الآية الأخرى (وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) أى ضعيف كما قال (ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه فى قرار مكين) يعنى الرحم معد لذلك مهيأ له (إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون) أى مدة معلومة وأجل معين حتى استحكم ونقل من حال إلى حال وصفة إلى صفة ولهذا قال ههنا (ثم خلقنا النطفة علقة) أى ثم صيرنا النطفة وهى الماء الدافق الذى يخرج من صلب الرجل وهو ظهره وترائب المرأة وهى عظام صدرها مابين الترقوة إلى السرة فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة قال عكرمة وهى دم (فخلقنا العلقة مضغة) وهى قطعة كالبضعة من اللحم لاشكل فيها ولا تخطيط (فخلقنا المضغة عظاما) يعنى شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها . وقرأ آخرون (فخلقنا المضغة عظما) قال ابن عباس وهو عظم الصلب وفى الصحيح من حديث أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل جسد ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب » (فكسونا العظام لحماً) أى جعلنا على ذلك مايستره ويشده ويقويه (ثم أنشأناه خلقا آخر) أى ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقا آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة

واضطراب (فتبارك الله أحسن الخالقين) ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا جعفر بن مسافر حدثنا يحيى بن حسان حدثنا النضر يعني ابن كثير مولى بني هاشم حدثنا زيد بن علي عن أبيه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : إذا أتت على النطفة أربعة أشهر بعث الله إليها ملكا فنفخ فيها الروح في ظلمات ثلاث فذلك قوله (ثم أنشأناه خلقاً آخر) يعني نفخنا فيه الروح ، وروى عن أبي سعيد الخدري أنه نفخ الروح قال ابن عباس (ثم أنشأناه خلقاً آخر) يعني فنفخنا فيه الروح ، وكذا قال مجاهد وعكرمة والشعبي والحسن وأبو العالية والضحاك والربيع بن أنس والسدي وابن زيد واختاره ابن جرير ، وقال العوفي عن ابن عباس (ثم أنشأناه خلقا آخر) يعني ننقله من حال إلى حال إلى أن خرج طفلا ثم نشأ صغيرا ثم احتلم ثم صار شابا ثم كهلا ثم شيخا ثم هرما . وعن قتادة والضحاك نحو ذلك ولا منافاة فانه من ابتداء نفخ الروح فيه شرع في هذه التنقلات والأحوال والله أعلم ، قال الإمام أحمد في مسنده حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله - هو ابن مسعود رضي الله عنه - قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق « إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما[1] ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : رزقه أجله وعمله وهل هو شقي أو سعيد ، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها » أخرجاه من حديث سليمان بن مهران الأعمش وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي خيثمة قال : قال عبد الله - يعني ابن مسعود - إن النطفة إذا وقعت في الرحم طارت في كل شعر وظفر فتمكث أربعين يوما ثم تنحدر في الرحم فتكون علقة . وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا حسين بن الحسن حدثنا أبو كدينة عن عطاء بن السائب عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله قال : مر يهودي برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه فقالت قريش يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي فقال لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي قال فجاءه حتى جلس فقال يا محمد مم يخلق الإنسان ؟ فقال « يا يهودي من كل يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة ، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعصب ، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدم » فقال هكذا كان يقول من قبلك . وقال الإمام أحمد حدثنا سفيان بن عمرو عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين ليلة فيقول يا رب ماذا ؟ شقي أم سعيد أذكر أم أنثى ؟ فيقول الله فيكتبان ويكتب عمله وأثره ومصيبته ورزقه ثم تطوى الصحيفة فلا يزاد على ما فيها ولا ينقص » وقد رواه مسلم في صحيحه من حديث سفيان بن عيينة عن عمرو هو ابن دينار به نحوه ، ومن طريق أخرى عن أبي الطفيل عامر بن واثلة عن حذيفة بن أسيد عن أبي سريحة الغفاري بنحوه والله أعلم : وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أحمد بن عبدة حدثنا حماد بن زيد حدثنا عبيد الله بن أبي بكر عن أنس أن رسول الله ﷺ قال « إن الله وكل بالرحم ملكا فيقول : أي رب نطفة أي رب علقة أي رب مضغة فإذا أراد الله خلقها قال أي رب ذكر أو أنثى ؟ شقي أو سعيد ؟ فما الرزق والأجل ؟ قال فذلك يكتب في بطن أمه » أخرجاه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد به وقوله (فتبارك الله أحسن الخالقين) يعني حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال وشكل إلى شكل حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوي الكامل الخلق قال (فتبارك الله أحسن الخالقين) قال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود حدثنا حماد بن سلمة حدثنا علي بن زيد عن أنس قال : قال عمر يعني ابن الخطاب رضي الله عنه وافقت ربي في أربع نزلت هذه الآية (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) الآية قلت أنا فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت (فتبارك الله أحسن الخالقين) وقال أيضاً حدثنا أبي حدثنا آدم ابن أبي إياس حدثنا شيبان عن جابر الجعفي عن عامر الشعبي عن زيد بن ثابت الأنصاري قال أملى على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة

(١) زاد في بعض الروايات : نطفة

من طين — إلى قوله — خلقنا آخر) فقال معاذ (فتبارك الله أحسن الخالقين) فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له معاذ مم تضحك يا رسول الله ؟ فقال « بها ختمت فتبارك الله أحسن الخالقين » وفى إسناده جابر بن زيد الجعفى ضعيف جدا وفى خبره هذا نكارة شديدة وذلك أن هذه السورة مكية وزيد بن ثابت إنما كتب الوحى بالمدينة وكذاك إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة أيضاً فالله أعلم . وقوله (ثم إنكم بعد ذلك لميتون) يعنى بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت (ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) يعنى النشأة الآخرة (ثم الله ينشىء النشأة الآخرة) يعنى يوم المعاد . وقيام الأرواح إلى الأجساد ، فيحاسب الخلائق ويوفى كل عامل عمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾

لما ذكر تعالى خلق الإنسان عطف بذكر خلق السموات السبع ، وكثير ما يذكر تعالى خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان كما قال تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) وهكذا فى أول الم السجدة التى كان رسول الله ﷺ يقرأ بها صبيحة يوم الجمعة فى أولها خلق السموات والأرض ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين وفيها أمر المعاد والجزاء وغير ذلك من المقاصد . وقوله (سبع طرائق) قال مجاهد يعنى السموات السبع وهذه كقوله تعالى (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا) (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما) وهكذا قال ههنا (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين)أى ويعلم ما يلج فى الأرض ومايخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ، وهو سبحانه لا يحجب عنه سماء سماء ولا أرض أرضا ، ولا جبل إلا يعلم مافى وعره ، ولا بحر إلا يعلم مافى قعره ، يعلم عدد مافى الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين)

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ * فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده التى لا تعد ولا تحصى فى إنزاله القطر من السماء بقدر أى بحسب الحاجة لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران ولا قليلا فلا يكفى الزروع والثمار بل بقدر الحاجة إليه من السقى والشرب والانتفاع به حتى إن الأراضى التى تحتاج ماء كثيراً لزرعها ولا تحتمل دمنتها إنزال المطر عليها يسوق إليها الماء من بلاد أخرى كما فى أرض مصر ويقال لها الارض الجرز يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة فى زمان أمطارها فيأتى الماء يحمل طينا أحمر فيسقى أرض مصر ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه لان أرضهم سباخ يغلب عليها الرمال فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور ، وقوله (فأسكناه فى الارض) أى جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد فى الارض ، وجعلنا فى الارض قابلية له وتشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى . وقوله (وإنا على ذهاب به لقادون) أى لو شئنا أن لا تمطر لفعلنا ولو شئنا أذى لصرفناه عنكم إلى السباخ والبرارى والقفار لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه أجاجا لا ينتفع به لشرب ولا لسقى لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل فى الأرض بل ينجر على

وجهها لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً فراتاً زلالا فيسكنه فى الأرض ويسلكه ينابيع فى الأرض فيفتح العيون والأنهار ويسقى به الزروع والثمار تشربون منه ودوابكم وأنعامكم وتغتسلون منه وتتطهرون منه وتتنظفون فله الحمد والمنة . وقوله (فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب) يعنى فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات أى بساتين وحدائق (ذات بهجة) أى ذات منظر حسن وقوله (من نخيل وأعناب) أى فيها نخيل وأعناب وهذا ما كان يألف أهل الحجاز ولا فرق بين الشىء بين نظيره وكذلك فى حق كل أهل إقليم عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره ، وقوله (لكم فيها فواكه كثيرة) أى من جميع الثمار كما قال (ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات) وقوله (ومنها تأكلون) كأنه معطوف على شىء مقدر تقديره تنظرون إلى حسنه ونضجه ومنه تأكلون ، وقوله (وشجرة تخرج من طور سيناء) يعنى الزيتونة ، والطور هو الجبل وقال بعضهم إنما يسمى طورا إذا كان فيه شجر فان عرى عنها سمى جبلا لا طورا والله أعلم ، وطور سيناء هو طور سينين وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام وما حوله من الجبال التى فيها شجر الزيتون ، وقوله (تنبت بالدهن) قال بعضهم الباء زائدة وتقديره تنبت الدهن كما فى قول العرب ألقى فلان بيده أى يده وأما على قول من يضمن الفعل فتقديره تخرج بالدهن أو تأتى بالدهن ولهذا قال (وصبغ) أى أدم قاله قتادة (للآكلين) أى فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ كما قال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن عبد الله بن عيسى عن عطاء الشامى عن أبى أسيد واسمه مالك ابن ربيعة الساعدى الأنصارى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كلوا الزيت وادهنوا به فانه من شجرة مباركة » وقال عبد بن حميد فى مسنده وتفسيره حدثنا عبد الرزاق أنا معمر عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ائتدموا بالزيت وادهنوا به فانه يخرج من شجرة مباركة » ورواه الترمذى وابن ماجه من غير وجه عن عبد الرزاق . قال الترمذى ولا يعرف إلا من حديثه وكان يضطرب فيه فربما ذكر فيه عمر وربما لم يذكره . قال أبو القاسم الطبرانى حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا أبى حدثنا سفيان بن عيينة حدثنى الصعب بن حكيم بن شريك بن نميلة عن أبيه عن جده قال ضفت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليلة عاشوراء فأطعمنى من رأس بعير بارد وأطعمنا زيتاً وقال هذا الزيت المبارك الذى قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وقوله (وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون) يذكر تعالى ما جعل لخلقه فى الأنعام من المنافع وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم ويأكلون من حملانها ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها ويركبون ظهورها ويحملونها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم كما قال تعالى (وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم) وقال تعالى (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام حين بعثه إلى قومه لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله (فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون) أى ألا تخافون من الله فى إشراككم به ؟ فقال الملأ وهم السادة والأكابر منهم (ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم) يعنون يترفع عليكم ويتعاظم

بدعوى النبوة وهو بشر مثلكم فكيف أوحى إليه دونكم (ولو شاء الله لأنزل ملائكة) أى لو أراد أن يبعث نبياً لبعث ملكا من عنده ولم يكن بشراً ما سمعنا بهذا أى ببعثة البشر فى آبائنا الأولين يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم فى الدهور الماضية ، وقوله (إن هو إلا رجل به جنة) أى مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله إليكم واختصه من بينكم بالوحى (فتربصوا به حتى حين) أى انتظروا به ريب المنون واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه دعا ربه ليستنصره على قومه كما قال تعالى مخبراً عنه فى الآية الأخرى (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر) وقال ههنا (رب انصرنى بما كذبون) فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين أى ذكرا وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك وأن يحمل فيها أهله (إلا من سبق عليه القول منهم) أى من سبق عليه القول من الله بالهلاك وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته والله أعلم ، وقوله (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) أى عند معاينة إنزال المطر العظيم لا تأخذنك رأفة بقومك وشفقة عليهم وطمع فى تأخيرهم لعلهم يؤمنون فانى قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان وقد تقدمت القصة مبسوطة فى سورة هود بما يغنى عن إعادة ذلك ههنا وقوله (فإذ استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين) كما قال (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون) وقد امتثل نوح عليه السلام هذا كما قال تعالى (وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها) فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه وقال تعالى (وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) وقوله (إن فى ذلك لآيات) أى إن فى هذا الصنيع وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين لآيات أى لحججا ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاءوا به عن الله تعالى وأنه تعالى فاعل لما يشاء قادر على كل شىء عليم بكل شىء وقوله (وإن كنا لمبتلين) أى لمختبرين للعباد بارسال المرسلين

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ * أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ

غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرنا آخرين قيل المراد بهم عاد فانهم كانوا مستخلفين بعدهم ، وقيل المراد بهؤلاء ثمود لقوله (فأخذتهم الصيحة بالحق) وأنه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له فكذبوه وخالفوه وأبوا عن اتباعه لكونه بشراً مثلهم واستنكفوا عن اتباع رسول بشرى وكذبوا بلقاء الله فى القيامة وأنكروا المعاد الجثمانى وقالوا (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون) أى بعد بعد ذلك (إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا) أى فيما جاءكم به من الرسالة والنذارة والاخبار بالمعاد (وما نحن له بمؤمنين * قال رب انصرنى بما كذبون) أى استفتح عليهم الرسول واستنصر ربه عليهم فأجاب دعاءه (قال عما قليل ليصبحن نادمين) أى بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به (فأخذتهم الصيحة بالحق) أى وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوى الباردة (تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) وقوله (فجعلناهم غثاء) أى صرعى هلكى كغثاء السيل وهو الشىء الحقير التافه الهالك الذى لا ينتفع بشىء منه (فبعداً للقوم الظالمين) كقوله (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) أى بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله ، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى (ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين) أى أمما وخلائق (ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) يعنى بل يؤخذون على حسب ما قدر لهم تعالى فى كتابه المحفوظ وعلمه قبل كونهم أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل وخلفاً بعد سلف (ثم أرسلنا رسلنا تترى) قال ابن عباس يعنى يتبع بعضهم بعضا وهذا كقوله تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) وقوله (كلما جاء أمة رسولها كذبوه) يعنى جمهورهم وأكثرهم كقوله تعالى (يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) وقوله (فأتبعنا بعضهم بعضاً) أى أهلكناهم كقوله (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح) وقوله (وجعلناهم أحاديث) أى أخباراً وأحاديث للناس كقوله (فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق)

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى عليه السلام وأخاه هرون إلى فرعون وملائه بالآيات والحجج الدامغات والبراهين القاطعات وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما والانقياد لأمرهما لكونهما بشيرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر تشابهت قلوبهم فأهلك الله فرعون وملأه وأغرقهم فى يوم واحد أجمعين وأنزل على موسى الكتاب وهو التوراة فيها أحكامه وأوامره ونواهيه وذلك بعد أن قصم الله فرعون والقبط وأخذهم أخذ عزيز مقتدر وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين كما قال تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون) .

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله عيسى بن مريم عليهما السلام أنه جعلهما آية للناس أى حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء فانه خلق آدم من غير أب ولا أم وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى ، وقوله (وآويناهما إلى ربوة ذات قرار معين) قال الضحاك عن ابن عباس : الربوة المكان المرتفع من الأرض وهو أحسن ما يكون فيه النبات وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة ، قال ابن عباس وقوله (ذات قرار) يقول ذات خصب (ومعين) يعنى ماء ظاهراً وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وقال مجاهد ربوة مستوية ، وقال سعيد بن جبير (ذات قرار ومعين) استوى الماء فيها وقال مجاهد وقتادة (ومعين) الماء الجارى . ثم اختلف المفسرون فى مكان هذه الربوة من أى أرض هى ؟ فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ليس الربى إلا بمصر والماء حين يسيل يكون الربى عليها القرى ولولا الربى غرقت القرى وروى عن وهب بن منبه نحو هذا وهو بعيد جدا وروى ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب فى قوله (وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) قال هى دمشق قال وروى عن عبد الله بن سلام والحسن وزيد بن أسلم وخالد بن معدان نحو ذلك وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا وكيع عن إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس (ذات قرار ومعين) قال: أنهار دمشق وقال ليث ابن أبى سليم عن مجاهد وآويناهما إلى ربوة قال عيسى بن مريم وأمه حين أويا إلى غوطة دمشق وما حولها وقال عبد الرزاق عن بشر بن رافع عن أبى عبد الله بن عم أبى هريرة قال سمعت أبا هريرة يقول : فى قول الله تعالى (إلى ربوة ذات قرار معين) قال هى الرملة من فلسطين ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابى حدثنا وداد بن الجراح حدثنا عباد بن عباد الخواص أبو عتبة حدثنا الشيبانى عن ابن وعلة عن كريب السحولى عن مرة البهذى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لرجل « إنك تموت بالربوة » فمات بالرملة وهذا حديث غريب جداً وأقرب الأقوال فى ذلك ما رواه العوفى عن ابن عباس فى قوله (وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) قال المعين الماء الجارى وهو النهر الذى قال الله تعالى (قد جعل ربك تحتك سريا) وكذا قال الضحاك وقتادة إلى ربوة ذات قرار ومعين هو بيت المقدس فهذا والله أعلم هو الأظهر لأنه المذكور فى الآية الأخرى والقرآن يفسر بعضه بعضاً وهذا أولى ما يفسر به ثم الأحاديث الصحيحة ثم الآثار

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾

يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال والقيام بالصالح من الأعمال فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام وجمعوا بين كل خير قولا وعملا ودلالة ونصحا فجزاهم الله عن العباد خيراً . قال الحسن البصرى فى قوله (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) قال أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ولا حلوكم ولا حامضكم ولكن قال انتهوا إلى الحلال منه ، وقال سعيد بن جبير والضحاك (كلوا من الطيبات) يعنى الحلال ، وقال أبو إسحق السبيعى عن أبى ميسرة عمرو بن شرحبيل كان عيسى بن مريم يأكل من غزل أمه ، وفى الصحيح « وما من نبى إلا رعى الغنم » قالوا وأنت يا رسول الله ؟ قال « نعم وأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة » وفى الصحيح « إن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده » وفى الصحيحين « إن أحب الصيام إلى الله صيام داود وأحب القيام إلى الله قيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه

وينام سدسه وكان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفر إذا لاقى » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو اليمان الحكم ابن نافع حدثنا أبو بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب أن أم عبدالله بنت شداد بن أوس قال بعثت إلى النبي ﷺ بقدح لبن عنده فطره وهو صائم وذلك في أول النهار وشدة الحر فرد اليها رسولها أني كانت لك الشاة ؟ فقالت اشتريتها من مالي ، فشرب منه فلما كان من الغد أتته أم عبد الله بنت شداد فقالت يارسول الله بعثت اليك بلبن مرئية لك من طول النهار وشدة الحر فرددت إلى الرسول فيه ، فقال لها « بذلك أمرت الرسل أن لاتأكل إلا طيبا ولاتعمل إلا صالحا » وقد ثبت في صحيح مسلم وجامع الترمذي ومسند الإمام أحمد واللفظ له من حديث فضيل بن مرزوق عن عدي بن ثابت عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يا أيها الناس إن الله طيب لايقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم) وقال (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام يمد يديه إلى السماء يارب يارب فأنى يستجاب لذلك » وقال الترمذي حسن غريب لانعرفه إلا من حديث فضيل بن مرزوق . وقوله (وإن هذه أمتكم أمة واحدة) أي دينكم يامعشر الأنبياء دين واحد وملة واحدة وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لاشريك له ولهذا قال (وأنا ربكم فاتقون) وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الأنبياء وأن قوله (أمة واحدة) منصوب على الحال وقوله (فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا) أي الأمم الذين بعثت اليهم الأنبياء (كل حزب بما لديهم فرحون) أي يفرحون بما هم فيه من الضلال لأنهم يحسبون أنهم مهتدون ولهذا قال متهددا لهم ومتواعدا (فذرهم في غمرتهم) أي في غيهم وضلالهم (حتى حين) أي إلى حين حينهم وهلاكهم كما قال تعالى (فمهل الكافرين أمهلهم رويدا) وقال تعالى (ذرهم يأكلوا ويتمعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) وقوله (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لايشعرون) يعني أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم (نحن أكثر أموالا وأولادا ومانحن بمعذبين) لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجا وإنظارا وإملاء ولهذا قال (بل لايشعرون) كما قال تعالى (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا) الآية . وقال تعالى (إنما نملي لهم ليزدادوا إثما) وقال تعالى (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لايعلمون * وأملي لهم) الآية وقال ذرني ومن خلقت وحيدا — إلى قوله — عنيدا) وقال تعالى (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا) الآية والآيات في هذا كثيرة ، قال قتادة في قوله (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لايشعرون) قال مكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم ، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح . وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا أبان بن إسحق عن الصباح ابن محمد عن مرة الهمداني حدثنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لايحب ولا يعطي الدين إلا لمن أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه والذي نفس محمد بيده لايسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولايؤمن حتى يأمن جاره بوائقه » قالوا وما بوائقه يارسول الله ؟ قال « غشمه وظلمه ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق به فيقبل منه ولايتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار إن الله لايمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن إن الخبيث لايمحو الخبيث »

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ * أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴾

يقول تعالى (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون) أى هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجلون من مكره بهم كما قال الحسن البصرى : إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة وإن المنافق جمع إساءة وأمناً (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) أى يؤمنون بآياته الكونية والشرعية كقوله تعالى إخبارا عن مريم عليها السلام (وصدقت بكلمات ربها وكتبه) أى أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه وإن كان نهيا فهو مما يكرهه ويأباه ، وإن كان خبرا فهو حق كما قال الله (والذين هم بربهم لا يشركون) أى لا يعبدون معه غيره بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأنه لا نظير له ولا كفء له : وقوله (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) أى يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا فى القيام بشروط الاعطاء وهذا من باب الاشفاق والاحتياط كما قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم حدثنا مالك بن مغول حدثنا عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن عائشة أنها قالت يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال «لا يا بنت أبى بكر يا بنت الصديق ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل» وهكذا رواه الترمذى وابن أبى حاتم من حديث مالك بن مغول به بنحوه ، وقال «لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يتقبل منهم (أولئك يسارعون فى الخيرات)» وقال الترمذى: وروى هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن سعيد عن أبى حازم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحو هذا وهكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظى والحسن البصرى فى تفسير هذه الآية وقد قرأ آخرون هذه الآية (والذين يأتون ما أتوا وقلوبهم وجلة) أى يفعلون ما يفعلون وهم خائفون . وروى هذا مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قرأها كذلك . قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا صخر بن جويرية حدثنا إسماعيل المكى حدثنا أبو خلف مولى بنى جمح أنه دخل مع عبيد بن عمير على عائشة رضى الله عنها فقالت مرحباً بأبى عاصم ما يمنعك أن تزورنا أو تلم بنا ؟ فقال أخشى أن أملل فقالت : ما كنت لتفعل ؟ قال جئت لأسألك عن آية من كتاب الله عز وجل كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ؟ قالت أية آية ؟ قال (الذين يؤتون ما آتوا) (والذين يأتون ما أتوا) فقالت أيتهما أحب إليك ؟ فقلت والذى نفسى بيده لأحدهما أحب إلى من الدنيا جميعاً أو الدنيا ومافيها قالت وما هى ؟ فقلت (الذين يأتون ما أتوا) فقالت أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرؤها وكذلك أنزلت ولكن الهجاء حرف . فيه إسماعيل بن مسلم المكى وهو ضعيف ، والمعنى على القراءة الأولى وهى قراءة الجمهور السبعة وغيرهم أظهر ، لأنه قال (أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) فجعلهم من السابقين ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك أن لا يكونوا من السابقين بل من المقتصدين أو المقصرين والله أعلم

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ * حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عدله فى شرعه على عباده فى الدنيا أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها أى إلا ما تطيق حمله والقيام به وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التى كتبها عليهم فى كتاب مسطور لا يضيع منه شىء ولهذا قال (ولدينا كتاب ينطق بالحق) يعنى كتاب الأعمال (وهم لا يظلمون) أى لا ينقصون من الخير شيئاً ، وأما السيئات فيعفو

ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين ثم قال منكرا على الكفار والمشركين من قريش (بل قلوبهم فى غمرة) أى فى غفلة وضلالة من هذا أى القرآن الذى أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم وقوله (ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون) قال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس (ولهم أعمال) أى سيئة من دون ذلك يعنى الشرك (هم لها عاملون) قال لابد أن يعملوها كذا روى عن مجاهد والحسن وغير واحد، وقال آخرون (ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون) أى قد كتبت عليهم أعمال سيئة لابد أن يعملوها قبل موتهم لامحالة لتحق عليهم كلمة العذاب، وروى نحو هذا عن مقاتل بن حيان والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ظاهر قوى حسن، وقد قدمنا فى حديث ابن مسعود «فوالذى لاإله غيره إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها» وقوله (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذاهم يجأرون) يعنى حتى إذا جاء مترفيهم وهم المنعمون فى الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم (إذاهم يجأرون) أى يصرخون ويستغيثون كما قال تعالى (ذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا إن لدينا أنكالا وجحيما) الآية وقال تعالى (وكم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص) وقوله (لاتجأروا اليوم إنكم منا لاتنصرون) أى لايجيركم أحد مما حل بكم سواء جأرتم أو سكتم لا محيد ولا مناص ولا وزر لزم الأمر ووجب العذاب ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال (قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون) أى إذا دعيتم أبيتم وإن طلبتم امتنعتم (ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير) وقوله (مستكبرين به سامراً تهجرون) فى تفسيره قولان (أحدهما) أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه استكبارا عليه واحتقارا له ولأهله فعلى هذا الضمير فى به فيه ثلاثة أقوال (أحدها) أنه الحرم أى مكة ذموا لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام. (والثانى) أنه ضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: إنه سحر إنه شعر إنه كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة (والثالث) أنه محمد ﷺ كانوا يذكرونه فى سمرهم بالأقوال الفاسدة ويضربون له الأمثال الباطلة من أنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو كذاب أو مجنون فكل ذلك باطل بل هو عبد الله ورسوله الذى أظهره الله عليهم وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء وقيل المراد بقوله (مستكبرين به) أى بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به كما قال النسائى فى التفسير من سننه أخبرنا أحمد بن سليمان أخبرنا عبيدالله عن إسرائيل عن عبد الأعلى أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس أنه قال إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية (مستكبرين به سامراً تهجرون) فقال مستكبرين بالبيت يقولون نحن أهله سامرا قال كانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولايعمرونه ويهجرونه وقد أطنب ابن أبى حاتم ههنا بما هذا حاصله

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ * وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

يقول تعالى منكرا على المشركين فى عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له وإعراضهم عنه مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذى لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف لا سيما آباؤهم الذين ماتوا فى الجاهلية حيث لم يبلغهم

كتاب ولا أتاهم نذير ، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التى أسداها الله عليهم بقبولها والقيام بشكرها وتفهمها والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم . وقال قتادة (أفلم يدبروا القول) إذاً والله يجدون فى القرآن زاجرا عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه ولكنهم أخذوا بما تشابه فهلكوا عند ذلك . ثم قال منكرا على الكافرين من قريش (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) أى أفهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانته التى نشأ بها فيهم أى أفيقدرون على إنكار ذلك والمباهتة فيه ، ولهذا قال جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه للنجاشى ملك الحبشة : أيها الملك إن الله بعث فينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته ، وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبى ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته ، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا ، ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك . وقوله (أم يقولون به جنة) يحكى قول المشركين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه تقول القرآن أى افتراه من عنده أو أن به جنوناً لا يدرى مايقول ، وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به وهم يعلمون بطلان ما يقولونه فى القرآن فإنه قد أتاهم من كلام الله مالا يطاق ولا يدافع وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا ولا يستطيعون أبدا الآبدين ولهذا قال (بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون) يحتمل أن تكون هذه جملة حالية أى فى حالة كراهة أكثرهم للحق ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة والله أعلم

وقال قتادة ذكر لنا أن نبى الله ﷺ لقى رجلا فقال له « أسلم » فقال الرجل إنك لتدعونى إلى امر أنا له كاره فقال نبى الله ﷺ « وإن كنت كارها » وذكر لنا أنه لقى رجلا فقال له « أسلم » فتصعده ذلك وكبر عليه فقال له نبى الله ﷺ « أرأيت لو كنت فى طريق وعر وعث فلقيت رجلا تعرف وجهه وتعرف نسبه فدعاك إلى طريق واسع سهل أكنت تتبعه ؟ » قال نعم : قال « فو الذى نفس محمد بيده إنك لفى أوعر من ذلك الطريق لو قد كنت عليه وإنى لأدعوك لأسهل من ذلك لو دعيت اليه » وذكر لنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم لقى رجلا فقال له « أسلم » فتصعده ذلك فقال له نبى الله ﷺ « أرأيت لو كان لك فتيان أحدهما إذا حدثك صدقك ، وإذا ائتمنته أدى اليك أهو أحب اليك أم فتاك الذى إذا حدثك كذبك وإذا ائتمنته خانك ؟ » قال بل فتاى الذى إذا حدثنى صدقنى وإذا ائتمنته أدى إلى فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم « كذا كم أنتم عند ربكم » . وقوله (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) قال مجاهد وأبو صالح والسدى الحق هو الله عزوجل والمراد لو أجابهم الله إلى مافى أنفسهم من الهوى وشرع الأمور على وفق ذلك لفسدت السموات والأرض ومن فيهن أى لفساد أهوائهم واختلافها كما أخبر عنهم فى قولهم (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ثم قال (أهم يقسمون رحمة ربك) وقال تعالى (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق) الآية ، وقال (أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا) فى هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم ، وأنه تعالى هو الكامل فى جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره وتدبيره لخلقه تعالى وتقدس فلا إله غيره ولا رب سواه ، ولهذا قال (بل أتيناهم بذكرهم) أى القرآن (فهم عن ذكرهم معرضون) وقوله (أم تسألهم خرجا) قال الحسن أجرا ، وقال قتادة جعلا (فخراج ربك خير) أى أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلا ولا شيئا على دعوتك إياهم إلى الهدى بل أنت فى ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه كما قال (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله) وقال (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) وقال (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى) وقال (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرا) وقوله (وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم * وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) قال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد بن جدعان عن يوسف ابن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه : اضرب مثل هذا ومثل أمته ، فقال : إن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم

سفر انتهوا إلى رأس مفازة فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل فى حلة حبرة فقال أرأيتم إن أوردتكم رياضا معشبة وحياضا رواء تتبعونى ؟ فقالوا نعم ، قال فانطلق بهم وأوردهم رياضا معشبة وحياضا رواء فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم ألم ألفكم على تلك الحال فجعلت لى إن وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء أن تتبعونى ؟ قالوا بلى ، قال فان بين أيديكم رياضا أعشب من هذه وحياضا هى أروى من هذه فاتبعونى قال فقالت طائفة صدق والله لنتبعنه وقالت طائفة قد رضينا بهذا نقيم عليه ، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا زهير حدثنا يونس بن محمد حدثنا يعقوب بن عبدالله الأشعرى حدثنا حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «إنى ممسك بحجزكم هلم عن النار هلم عن النار وتغلبونى تتقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب فأوشك أن أرسل حجزكم وأنا فرطكم على الحوض فتردون على معا وأشتاتا أعرفكم بسيماكم وأسمائكم كما يعرف الرجل الغريب من الإبل فى إبله فيذهب بكم ذات اليمين وذات الشمال فأناشدفيكم رب العالمين أى رب قومى أى رب أمتى ، فيقال يا محمد إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك إنهم كانوا يمشون بعدك القهقرى على أعقابهم ، فلأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء ينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد بلغت ، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل بعيرا له رغاء ينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغت ، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل فرسا لها حمحمه فينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغت ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل سقاء من أدم ينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغت » وقال على بن المدينى هذا حديث حسن الإسناد إلا أن حفص بن حميد مجهول لا أعلم روى عنه غير يعقوب بن عبد الله الأشعرى القمى (قلت) بل قد روى عنه أيضا أشعث بن إسحق ، وقال فيه يحيى بن معين : صالح ووثقه النسائى وابن حبان وقوله (وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) أى لعادلون جائرون منحرفون تقول العرب نكب فلان عن الطريق إذا زاغ عنها وقوله (ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون) يخبر تعالى عن غلظهم فى كفرهم بأنه لو أزاح عنهم الضر وأفهمهم القرآن لما انقادوا له ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم كما قال تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) وقال (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لما نهوا عنه — إلى قوله — بمبعوثين) فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون لو كان كيف يكون ، قال الضحاك عن ابن عباس : كل ما فيه (لو) فهو مما لا يكون أبدا

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ * وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

يقول تعالى (ولقد أخذناهم بالعذاب) أى ابتليناهم بالمصائب والشدائد (فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) أى فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة بل استمروا على غيهم وضلالهم ما استكانوا أى ما خشعوا (وما يتضرعون) أى ما دعوا كما قال تعالى (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم) الآية ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا محمد بن حمزة الروزى حدثنا على بن الحسين حدثنا أبى عن يزيد — يعنى النحوى — عن عكرمة

عن ابن عباس أنه قال جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز ـ يعنى الوبر والدم ـ فأنزل الله (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا) الآية ، وكذا رواه النسائى عن محمد ابن عقيل عن على بن الحسين عن أبيه به ، وأصله فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال « اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف » . وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا عبد الله بن إبراهيم عن عمر بن كيسان حدثنى وهب بن عمر بن كيسان قال : حبس وهب بن منبه فقال له رجل من الأبناء ألا أنشدك بيتا من شعر يا أبا عبد الله ؟ فقال وهب نحن فى طرف من عذاب الله والله يقول (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) قال وصام وهب ثلاثا متواصلة فقيل له ماهذا الصوم يا أبا عبد الله ؟ قال أحدث لنا فأحدثنا : يعنى أحدث لنا الحبس فأحدثنا زيادة عبادة : وقوله (حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون) أى حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون فعند ذلك أبلسوا من كل خير وأيسوا من كل راحة وانقطعت آمالهم ورجاؤهم : ثم ذكر تعالى نعمه على عباده بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة وهى العقول والفهوم التى يذكرون بها الأشياء ويعتبرون بما فى الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله وأنه الفاعل المختار لما يشاء . وقوله (قليلا ما تشكرون) أى ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم كقوله (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر فى برئه الخليقة وذرئه لهم فى سائر أقطار الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم ثم يوم القيامه يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم فلا يترك منهم صغيرا ولا كبيرا ولا ذكرا ولا أنثى ولا جليلا ولا حقيرا إلا أعاده كما بدأه ولهذا قال (وهو الذى يحيى ويميت أى يحى الرمم ويميت الأمم (وله اختلاف الليل والنهار) أى وعن أمره تسخير الليل والنهار كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا يتعاقبان لا يفتران ولا يفترقان بزمان غيرهما كقوله (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار) الآية . وقوله (أفلا تعقلون) أى أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذى قد قهر كل شىء وعز كل شىء ، وخضع له كل شىء ، ثم قال مخبرا عن منكرى البعث الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين (بل قالوا مثل ما قال الأولون * قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) يعنى يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى (لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ، إن هذا إلا أساطير الأولين) يعنون الاعادة محال إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلافهم وهذا الانكار والتكذيب منهم كقوله إخبارا عنهم (أئذا كنا عظاما نخرة * قالوا تلك إذا كرة خاسرة * فإنما هى زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة) وقال تعالى (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحيها الذى أنشأها أول مرة هو بكل خلق عليم) الآيات

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾

يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ليرشد إلى أنه الله الذى لا إله إلا هو ولا تنبغى العبادة إلا له وحده لا شريك له ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية وأنه لا شريك له فيها ومع هذا فقد أشركوا معه فى الإلهية فعبدوا غيره معه مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئا ولا يملكون شيئا ولا يستبدون بشىء بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فقال (قل لمن الأرض ومن فيها ؟) أى من مالكها الذى خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات وسائر صنوف المخلوقات (إن كنتم تعلمون ؟

سيقولون لله) أى فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لاشريك له ، فاذا كان ذلك (قل أفلا تذكرون) أنه لاتنبغى العبادة إلا للخالق الرازق لالغيره (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟) أى من هو خالق العالم العلوى بمافيه من الكواكب النيرات والملائكة الخاضعين له فى سائر الأقطار منها والجهات ، ومن هو رب العرش العظيم يعنى الذى هو سقف المخلوقات كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « شأن الله أعظم من ذلك إن عرشه على سمواته هكذا » وأشار بيده مثل القبة ، وفى الحديث الآخر « ما السموات السبع والأرضون السبع وما بينهن وما فيهن فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن الكرسى بمافيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة فى تلك الفلاة » ولهذا قال بعض السلف : إن مسافة مابين قطرى العرش من جانب إلى جانب مسيرة خمسين ألف سنة ، وارتفاعها عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة ، وقال الضحاك عن ابن عباس : إنما سمى عرشاً لارتفاعه . وقال الأعمش عن كعب الأحبار : إن السموات والأرض فى العرش كالقنديل المعلق بين السماء والأرض ، وقال مجاهد : ما السموات والأرض فى العرش إلا كحلقة فى أرض فلاة . وقال ابن أبى حاتم حدثنا العلاء بن سالم حدثنا وكيع حدثنا سفيان الثورى عن عمار الدهنى عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : العرش لايقدر قدره أحد : وفى رواية : إلا الله عز وجل ، وقال بعض السلف : العرش من ياقوتة حمراء ولهذا قال ههنا (ورب العرش العظيم) أى الكبير وقال فى آخر السورة (رب العرش الكريم) أى الحسن البهى فقد جمع العرش بين العظمة فى الاتساع والعلو والحسن الباهر ولهذا قال من قال إنه من ياقوتة حمراء ، وقال ابن مسعود . إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه . وقوله (سيقولون لله قل أفلا تتقون) أى إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه فى عبادتكم معه غيره وإشراككم به . قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا القرشى فى كتاب التفكر والاعتبار . حدثنا إسحق بن إبراهيم أنا عبيد الله بن جعفر أخبرنى عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ كثيراً مايحدث عن امرأة كانت فى الجاهلية على رأس جبل معها ابن لها يرعى غنما فقال لها ابنها يا أمه من خلقك ؟ قالت الله قال فمن خلق أبى ؟ قالت الله قال فمن خلقنى ؟ قالت الله قال فمن خلق السموات ؟ قالت الله قال فمن خلق الأرض ؟ قالت الله قال فمن خلق الجبل ؟ قالت الله قال فمن خلق هذه الغنم ؟ قالت الله قال فانى أسمع لله شأنا ثم ألقى نفسه من الجبل فتقطع . قال ابن عمر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً مايحدثنا هذا الحديث ، قال عبد الله بن دينار كان ابن عمر كثيرا مايحدثنا بهذا الحديث قلت فى إسناده عبيد الله ابن جعفر المدينى والد الإمام على بن المدينى وقد تكلموا فيه فالله أعلم . (قل من بيده ملكوت كل شىء) أى بيده الملك (مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها) أى متصرف فيها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لاوالذى نفسى بيده » وكان إذا اجتهد فى اليمين قال « لا ومقلب القلوب » فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف (وهو يجير ولايجار عليه إن كنتم تعلمون) كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً لايخفر فى جواره وليس لمن دونه أن يجير عليه لئلا يفتات عليه ولهذا قال الله (وهو يجير ولايجار عليه) أى وهو السيد العظيم الذى لاأعظم منه الذى له الخلق والأمر ولا معقب لحكمه الذى لايمانع ولا يخالف وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن : وقال الله (لايسئل عما يفعل وهم يسئلون) أى لايسئل عما يفعل لعظمته وكبريائه وغلبته وقهره وعزته وحكمته وعدله فالخلق كلهم يسئلون عن أعمالهم كما قال تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) وقوله (سيقولون لله) أى سيعترفون أن السيد العظيم الذى يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لاشريك له (قل فأنى تسحرون) أى فكيف تذهب عقولكم فى عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك ثم قال تعالى (بل أتيناهم بالحق) وهو الاعلام بأنه لاإله إلا الله وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك (وإنهم لكاذبون) أى فى عبادتهم مع الله غيره ولادليل لهم على ذلك كما قال فى آخر السورة (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لابرهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لايفلح الكافرون) فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ماهم فيه من الإفك والضلال ، وإنما يفعلون ذلك اتباعا لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال كما قال

الله عنهم (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون)

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك فى الملك والتصرف والعبادة فقال تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) أى لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق فما كان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق كل من العالم العلوى والسفلى مرتبط بعضه ببعض فى غاية الكمال (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه فيعلو بعضهم على بعض والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه فان لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين والواجب لا يكون عاجزاً ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد ، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد فيكون محالا فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ممكناً لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهورا ، ولهذا قال تعالى (ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) أى عما يقول الظالمون المعتدون فى دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً (عالم الغيب والشهادة) أى يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه (فتعالى عما يشركون) أى تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ * ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾

يقول تعالى آمرا نبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم (رب إما تريني ما يوعدون) أى إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك فلا تجعلنى فيهم كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والترمذى وصححه « وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنى إليك غير مفتون » وقوله تعالى (وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون) أى لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم والبلاء والمحن . ثم قال تعالى مرشداً له إلى الترياق النافع فى مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسىء إليه ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة فقال تعالى (ادفع بالتى هى أحسن السيئة) وهذا كما قال فى الآية الأخرى (ادفع بالتى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا) الآية أى وما يلهم هذه الوصية أو هذه الخصلة أو الصفة (إلا الذين صبروا) أى على أذى الناس فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم إليهم القبيح (وما يلقاها إلا ذوحظ عظيم) أى فى الدنيا والآخرة وقوله تعالى (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين) أمره الله أن يستعيذ من الشياطين لأنهم لا تنفع معهم الحيل ولا ينقادون بالمعروف ، وقد قدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » وقوله تعالى (وأعوذ بك رب أن يحضرون) أى فى شىء من أمرى ولهذا أمر بذكر الله فى ابتداء الأمور وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور ، ولهذا روى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « اللهم إنى أعوذ بك من الهرم ، وأعوذ بك من الهدم ومن الغرق ، وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت » وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا محمد بن إسحق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان

رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم من الفزع « باسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » قال فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه ومن كان منهم صغيرا لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها في عنقه . ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث محمد بن إسحق وقال الترمذي حسن غريب

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى وقيلهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته ولهذا قال (رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا) كما قال تعالى (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت — إلى قوله — والله خبير بما تعملون) وقال تعالى (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب — إلى قوله — مالكم من زوال) وقال تعالى (يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل) وقال تعالى (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون) وقال تعالى (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا — إلى قوله — وإنهم لكاذبون) وقال تعالى (وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل) وقال تعالى (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل) والآية بعدها . وقال تعالى (وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير) فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار ويوم النشور ووقت العرض على الجبار وحين يعرضون على النار وهم في غمرات عذاب الجحيم . وقوله ههنا (كلا إنها كلمة هو قائلها) كلا حرف ردع وزجر أي لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه وقوله تعالى (إنها كلمة هو قائلها) قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أي لا بد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم ، ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله كلا أي لأنها كلمة أي سؤاله الرجوع ليعمل صالحا هو كلام منه وقول لا عمل معه ولو رد لما عمل صالحا ولكان يكذب في مقالته هذه كما قال تعالى (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) قال قتادة : والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة ولا بأن يجمع الدنيا ويقضي الشهوات ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل فرحم الله امرأ عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار ، وقال محمد بن كعب القرظي (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت) قال فيقول الجبار (كلا إنها كلمة هو قائلها) وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة : إذا قال الكافر رب ارجعون لعلي أعمل صالحا يقول الله تعالى: كلا كذبت ، وقال قتادة في قوله تعالى (حتى إذا جاء أحدهم الموت) قال كان العلاء بن زياد يقول : لينزلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله فليعمل بطاعة الله تعالى وقال قتادة : والله ما تمنى إلا أن يرجع فيعمل بطاعة الله فانظروا أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها ولا قوة إلا بالله وعن محمد بن كعب القرظي نحوه وقال محمد بن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن يوسف حدثنا فضيل — يعني ابن عياض — عن ليث عن طلحة بن مصرف عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : إذا وضع — يعني الكافر — في قبره فيرى مقعده من النار قال: فيقول رب ارجعون أتوب وأعمل صالحا قال: فيقال قد عمرت ما كنت معمرا ، قال فيضيق عليه قبره ويلتئم فهو كالمنهوش ينام ويفزع تهوى إليه هوام الأرض وحياتها وعقاربها

وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا عمر بن علي حدثني سلمة بن تمام حدثنا علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ويل لأهل المعاصي من أهل القبور تدخل عليهم في قبورهم حيات سود أودهم، حية عند رأسه

وحية عند رجليه يقرصانه حتى يلتقيا فى وسطه فذلك العذاب فى البرزخ الذى قال الله تعالى (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) .وقال أبو صالح وغيره فى قوله تعالى (ومن ورائهم) يعنى أمامهم . وقال مجاهد : البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة . وقال محمد بن كعب : البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم . وقال أبو صخر : البرزخ المقابر لا هم فى الدنيا ولا هم فى الآخرة فهم مقيمون إلى يوم يبعثون وفى قوله تعالى (ومن ورائهم برزخ) تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ كما قال تعالى (من ورائهم جهنم) وقال تعالى (ومن ورائه عذاب غليظ) وقوله تعالى (إلى يوم يبعثون) أى يستمر به العذاب إلى يوم البعث كما جاء فى الحديث « فلا يزال معذبا فيها » أى فى الأرض

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ * فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه إذا نفخ فى الصور نفخة النشور ، وقام الناس من القبور (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) أى لا تنفع الانسان يومئذ ولا يرثى والد لولده ولا يلوى عليه ، قال الله تعالى (ولا يسأل حميم حميما يبصرونهم) أى لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره وهو كان أعز الناس عليه فى الدنيا ما التفت إليه ولاحمل عنه وزن جناح بعوضة قال الله تعالى (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه) الآية وقال ابن مسعود : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد : ألا من كان له مظلمة فليجىء فليأخذ حقه ـ قال فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيرا ، ومصداق ذلك فى كتاب الله تعالى قال الله تعالى فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) رواه ابن أبى حاتم

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا عبد الله بن جعفر حدثتنا أم بكر بنت المسور بن مخرمة عن عبيد الله بن أبى رافع عن المسور ـ هو ابن مخرمة ـ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « فاطمة بضعة منى يغيظنى ما يغيظها وينشطنى ما ينشطها ، وإن الانساب تنقطع يوم القيامة إلا نسبى وسببى وصهرى » وهذا الحديث له أصل فى الصحيحين عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال « فاطمة بضعة منى يريبنى ما يريبها ويؤذينى ما آذاها » وقال الإمام أحمد حدثنا أبو عامر حدثنا زهير عن عبد الله بن محمد عن حمزة بن أبى سعيد الخدرى عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على هذا المنبر « ما بال رجال يقولون إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه ؟ بلى والله إن رحمى موصولة فى الدنيا والآخرة وإنى أيها الناس فرط لكم إذا جئتم » قال رجل يا رسول الله أنا فلان بن فلان فأقول لهم : أما النسب فقد عرفت ولكنكم أحدثتم بعدى وارتددتم القهقرى » وقد ذكرنا فى مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من طرق متعددة عنه رضى الله عنه أنه لما تزوج أم كلثوم بنت على بن أبى طالب رضى الله عنهما قال : أما والله مابى إلا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كل سبب ونسب فانه منقطع يوم القيامة إلا سببى ونسبى » رواه الطبرانى والبزار والهيثم بن كليب والبيهقى والحافظ الضياء فى المختارة وذكر أنه أصدقها أربعين ألفا عظاما وأكراما رضى الله عنه ، فقد روى الحافظ بن عساكر فى ترجمة أبى العاص ابن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ من طريق أبى القاسم البغوى حدثنا سليمان بن عمر بن الأقطع حدثنا إبراهيم بن عبد السلام عن إبراهيم بن يزيد عن محمد بن عباد بن جعفر سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ « كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبى وصهرى » وروى فيها من طريق عمار بن سيف عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو مرفوعا « سألت ربى عز وجل أن لا أتزوج إلى أحد من أمتى ولا يتزوج

إلى أحد منهم إلا كان معى فى الجنة فأعطانى ذلك » ومن حديث عمار بن سيف عن إسماعيل عن عبد الله بن عمرو ، وقوله تعالى (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون) أى من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة ، قاله ابن عباس (فأولئك هم المفلحون) أى الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة ، وقال ابن عباس : أولئك الذين فازوا بما طلبوا ، ونجوا من شر مامنه هربوا (ومن خفت موازينه) أى ثقلت سيئاته على حسناته (فأولئك الذين خسروا أنفسهم) أى خابوا وهلكوا وباءوا بالصفقة الخاسرة ، وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا إسماعيل بن أبى الحارث حدثنا داود بن المحبر حدثنا صالح المرى عن ثابت البنانى وجعفر بن زيد ومنصور بن زاذان عن أنس بن مالك يرفعه قال : إن لله ملكا موكلا بالميزان فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتى الميزان فان ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمعه الخلائق سعد فلان سعادة لايشقى بعدها أبداً ، وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً : إسنادة ضعيف فان داود بن المحبر ضعيف متروك ولهذا قال تعالى (فى جهنم خالدون) أى ماكثون فيها دائمون مقيمون فلا يظعنون (تلفح وجوههم النار) كما قال تعالى (وتغشى وجوههم النار) وقال تعالى (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) الآية وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا فروة ابن أبى المغراء حدثنا محمد بن سليمان الأصبهانى عن أبى سنان ضرار بن مرة عن عبد الله بن أبى الهذيل عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « إن جهنم لما سيق لها أهلها تلقاهم لهبها ثم تلفحهم لفحة فلم يبق لهم لحم إلا سقط على العرقوب » وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى القزاز حدثنا الخضر بن على بن يونس القطان حدثنا عمرو بن أبى الحارث بن الخضر القطان حدثنا سعيد بن سعيد المقبرى عن أخيه عن أبيه عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ فى قول الله تعالى (تلفح وجوههم النار) قال تلفحهم لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم ، وقوله تعالى (وهم فيها كالحون) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى عابسون ، وقال الثورى عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود (وهم فيها كالحون) قال ألم تر إلى الرأس المشيط الذى قد بدا أسنانه وقلصت شفتاه . وقال الإمام أحمد رحمه الله أخبرنا على بن إسحاق أخبرنا عبد الله هو ابن المبارك رحمه الله أخبرنا سعيد بن يزيد عن أبى السمح عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال « (وهم فيها كالحون) — قال — تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه . وتسترخى شفته السفلى حتى تبلغ سرته » ورواه الترمذى عن سويد ابن نصر عن عبد الله بن المبارك به وقال حسن غريب

﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾

هذا تقريع من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التى أوبقتهم فى ذلك فقال تعالى (ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون) أى قد أرسلت إليكم الرسل وأنزلت إليكم الكتب وأزلت شبهكم ولم يبق لكم حجة كما قال تعالى (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقال (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال تعالى (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير — إلى قوله — فسحقاً لأصحاب السعير) ولهذا قالوا (ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين) أى قد قامت علينا الحجة ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها فضللنا عنها ولم نرزقها . ثم قالوا (ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون) أى اردنا إلى الدنيا فان عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة كما قال (فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل * — إلى قوله — فالحكم لله العلى الكبير) أى لاسبيل إلى الخروج لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون

﴿ قَالَ اخْسَـُٔوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ

خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾

هـذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار . يقول (اخسئوا فيها) أى امكثوا فيها ساغرير مهانين أذلاء (ولاتكلمون) أى لاتعودوا إلى سؤالكم هـذا فانه لاجواب لكم عندى قال العوفى عن ابن عباس (اخسئوا فيها ولا تكلمون) قال هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه :وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبدة بن سليمان الروزى حدثنا عبد الله بن المبارك عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن أبى أيوب عن عبد الله بن عمرو قال : إن أهل جهنم يدعون مالكا فلايجيبهم أربعين عاما ثم يرد عليهم إنكم ماكثون قال هانت دعوتهم والله على مالك ورب مالك ، ثم يدعون ربهم فيقولون (ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين * ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون) قال فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم (اخسئوا فيها ولا تكلمون)قال فوالله ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة ، وما هو إلا الزفير والشهيق فى نارجهنم قال فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أو لها زفير وآخرها شهيق ، وقال ابن أبى حاتم أيضا حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا سفيان عن سلمة بن كهيل حدثنا أبو الزعراء قال : قال عبد الله بن مسعود إذا أراد الله تعالى أن لايخرج منهم أحداً يعنى من جهنم غير وجوههم وألوانهم فيجىء الرجل من المؤمنين فيشفع فيقول يا رب فيقول الله من عرف أحداً فليخرجه فيجىء الرجل من المؤمنين فينظر فلا يعرف أحداً فيناديه الرجل يا فلان أنا فلان فيقول ماأعرفك قال فعندذلك يقولون (ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون) فعند ذلك يقول الله تعالى (اخسئوا فيها ولاتكلمون)فاذا قال ذلك أطبقت عليهم النار فلا يخرج منهم أحد ، ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم فى الدنيا وماكانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه فقال تعالى (إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفرلنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخريا) أى فسخرتم منهم فى دعائهم إياى وتضرعهم إلى (حتى أنسوكم ذكرى) أى حملكم بغضهم على أن أنسيتم معاملتى وكنتم منهم تضحكون) أى من صنيعهم وعبادتهم كما قال تعالى (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون) أى يلمزونهم استهزاء ثم أخبر تعالى عما جازى به أولياءه وعباده الصالحين فقال تعالى (إنى جزيتهم اليوم بما صبروا) أى على أذاكم لهم واستهزائكم بهم (أنهم هم الفائزون) أى جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة والنجاة من النار

﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾

يقول تعالى منبها لهم على ما أضاعوه فى عمرهم القصير فى الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده ولوصبروا فى مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون (قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين) أى كم كانت إقامتكم فى الدنيا(قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين) أى الحاسبين (قال إن لبثتم إلا قليلا) أى مدة يسيرة على كل تقدير(لوأنكم كنتم تعلمون) أى لما آثرتم الفانى على الباقى ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السىء ولا استحققتم من الله سخطه فى تلك المدة اليسيرة فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا ، قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن الوزير حدثنا الوليد حدثنا صفوان عن أيفع بن عبد الكلاعى أنه سمعه يخطب الناس فقال : قال رسول الله ﷺ « إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال يا أهل الجنة كم لبثتم فى الأرض

عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ـ قال ـ لنعم ما اتجرتم فى يوم أو بعض يوم رحمتى ورضوانى وجنتى امكثوا فيها خالدين مخلدين ؟ ثم قال ياأهل النار كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فيقول بئس ما اتجرتم فى يوم أو بعض يوم نارى وسخطى امكثوا فيها خالدين مخلدين » وقوله تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا) أى أفظننتم أنكم مخلوقون عبثا بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا ، وقيل للعبث أى لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل (وأنكم إلينا لا ترجعون) أى لا تعودون فى الدار الآخرة كما قال تعالى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) يعنى هملا ، وقوله (فتعالى الله الملك الحق) أى تقدس أن يخلق شيئا عبثا فانه الملك الحق المنزه عن ذلك (لا إله إلا هو رب العرش الكريم) فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات ووصفه بأنه كريم أى حسن المنظر بهى الشكل كما قال تعالى (وأنبتنا فيها من كل زوج كريم) : قال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا على بن محمد الطنافسى حدثنا إسحق بن سليمان شيخ من أهل العراق أنبأنا شعيب ابن صفوان عن رجل من آل سعيد بن العاص قال : كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا ، ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معادا ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم ، فخاب وخسر وشقى عبد أخرجه الله من رحمته وحرم جنة عرضها السموات والأرض ألم تعلموا أنه لا يؤمن عذاب الله غدا إلا من حذر هذا اليوم وخافه وباع نافدا بباق وقليلا بكثير وخوفا بأمان ، ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين وسيكون من بعدكم الباقين حتى تردون إلى خير الوارثين ؟ ثم إنكم فى كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله عز وجل قد قضى نحبه وانقضى أجله حتى تغيبوه فى صدع من الأرض فى بطن صدع غير ممهد ولا موسد قد فارق الأحباب وباشر التراب ، ووجه الحساب ، مرتهن بعمله غنى عما ترك فقير إلى ما قدم . فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء مواثيقه ونزول الموت بكم ، ثم جعل طرف ردائه على وجهه فبكى وأبكى من حوله . وقال ابن أبى حاتم حدثنا يحيى بن نصير الخولانى ثنا ابن وهب أخبرنى ابن لهيعة عن أبى هبيرة عن حسن بن عبد الله أن رجلا نصابا مر به عبد الله بن مسعود فقرأ فى أذنه هذه الآية (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق) حتى ختم السورة فبرأ فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بماذا قرأت فى أذنه ؟ » فأخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده لو أن رجلا موقنا قرأها على جبل لزال » وروى أبو نعيم من طريق خالد بن نزار عن سفيان بن عيينة عن محمد بن المنكدر عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبيه قال بعثنا رسول الله ﷺ فى سرية وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) قال فقرأناها فغنمنا وسلمنا ، وقال ابن أبى حاتم أيضا حدثنا إسحق بن وهب العلاف الواسطى حدثنا أبو المسيب سالم بن سلام حدثنا بكر بن حبيش عن نهشل بن سعيد عن الضحاك بن مزاحم عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « أمان أمتى من الغرق إذا ركبوا السفينة باسم الله الملك الحق ، وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ، باسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم »

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ * وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

يقول تعالى متوعدا من أشرك به غيره وعبد معه سواه ومخبرا أن من أشرك بالله لا برهان له أى لا دليل له على قوله فقال تعالى (ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به) وهذه جملة معترضة وجواب الشرط فى قوله (فإنما حسابه عند ربه) أى الله يحاسبه على ذلك ، ثم أخبر (إنه لا يفلح الكافرون) أى لديه يوم القيامة لا فلاح لهم ولا نجاة . قال قتادة : ذكر

لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل « ما تعبد ؟ » قال أعبد الله وكذا وكذا حتى عد أصناما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فأيهم إذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك ؟ » قال : الله عز وجل. قال «فأيهم إذا كانت لك حاجة فدعوته أعطاكها ؟ » قال الله عز وجل قال « فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه أم حسبت أن تغلب عليه » قال : أردت شكره بعبادة هؤلاء معه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعلمون ولا يعلمون » فقال الرجل بعد ما أسلم لقيت رجلا خصمني . هذا مرسل من هذا الوجه، وقد روى أبو عيسى الترمذي في جامعه مسنداً عن عمران بن الحصين عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو ذلك . وقوله تعالى (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء ، فالغفر إذا أطلق معناه محو الذنب وستره عن الناس والرحمة معناها أن يسدده ويرفقه في الأقوال والأفعال . آخر تفسير سورة المؤمنون .

﴿ تفسير سورة النور وهي مدنية ﴾

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى هذه السورة أنزلناه ، فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفي مع ماعداها (وفرضناها) قال مجاهد وقتادة : أي بينا الحلال والحرام والأمر والنهي والحدود . وقال البخاري : ومن قرأ فرضناها يقول فرضناها عليكم وعلى من بعدكم (وأنزلنا فيها آيات بينات) أي مفسرات واضحات (لعلكم تذكرون) ثم قال تعالى (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) يعني هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد ، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع ، فإن الزاني لا يخلو إما أن يكون بكراً وهو الذي لم يتزوج ، أو محصنا وهو الذي قد وطيء في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل ، فأما إذا كان بكرا لم يتزوج فإن حده مائة جلدة كما في الآية ويزاد على ذلك أن يغرب عاما عن بلده عند جمهور العلماء خلافا لأبي حنيفة رحمه الله فان عنده أن التغريب إلى رأي الإمام إن شاء غرب وإن شاء لم يغرب ، وحجة الجمهور في ذلك ماثبت في الصحيحين من رواية الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني في الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما : يا رسول الله إن ابني هذا كان عسيفا — يعني أجيرا — على هذا فزني بامرأته فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام وأن على امرأة هذا : الرجم . فقال رسول الله ﷺ « والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى . الوليدة والغنم رد عليك ، وعلى ابنك مائة جلدة وتغريب عام. واغد يا أنيس — لرجل من أسلم — إلى امرأة هذا فان اعترفت فارجمها » فغدا عليها فاعترفت فرجمها : وفي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلد مائة إذا كان بكرا لم يتزوج ، فأما إذا كان محصنا وهو الذي قد وطيء في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل فانه يرجم كما قال الإمام مالك حدثني ابن شهاب أخبرنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود أن ابن عباس أخبره أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس فان الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل لا نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله . فالرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال ومن النساء ، إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف . أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك مطولا ، وهذه قطعة منه فيها مقصودنا ههنا وروى الإمام أحمد عن هشيم عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس حدثني عبد الرحمن بن عوف أن عمر